

مراجعة كتاب

Book review

كيف تفكر كأثنروبولوجي؟

عبد الله أحمد جلال الدين

محاضر بجامعة أم درمان الإسلامية، السودان؛ وطالب دكتوراه بجامعة إسطنبول (تركيا)

Abdalla Ahmed Galal Eldeen

Lecturer at Umm Durman Islamic University, Sudan, and PhD Student at Istanbul University, Turke
abdelden556@gmail.com

المؤلف: ماثيو أنجيلكه.
ترجمة: عومرية سلطاني.
الناشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
سنة النشر: 2020.
عدد الصفحات: 304 صفحات.

صدر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر في بيروت مطلع عام 2020 النسخة العربية من كتاب ماثيو أنجيلكه (Matthew E. Engelke) الموسوم بـ كيف تُفكر كأثنروبولوجي Think Like an Anthropologist، ويتكون من تسعة فصول، تناقش المفاهيم الكلاسيكية في الأثنروبولوجيا، مثل: الثقافة، والحضارة، والقيم، والقيمة، والدم، والهوية والسلطة... إلخ، في 304 صفحات. ولا يهدف الكتاب إلى تقديم تاريخ مفصل عن الأثنروبولوجيا، فيقول أنجيلكه «سأحاول إلقاء الضوء، وكلما سنحت الفرصة على بعض الشخصيات والمسارات والاتجاهات الرئيسية، ذلك أن قصة ظهور الأثنروبولوجيا وتطورها يمكنها أن تخبرنا بأشياء مهمة عن التخصصات الأكاديمية الحديثة بشكل عام، كما أن الإحاطة ببعض خلفيات هذا العلم ستكون مفيدة بالنظر إلى الاهتمام الذي سنوليه هنا لمجالات فرعية في

للاقتباس: جلال الدين، «مراجعة كتاب: "كيف تفكر كأثنروبولوجي؟" لعومرية سلطاني»، مجلة تجسير، المجلد الأول، العدد 2، 2020

<https://doi.org/10.29117/tis.2020.0047>

© 2020، جلال الدين، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقاً لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتبع حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

كل من الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية»¹.

في الفصل الأول يناقش أنجيلكه موضوع الثقافة، معتبرًا إياها من القضايا المهمة عند علماء الأنثروبولوجيا الأميركيين، إذ هي من المصطلحات الأكثر استخدامًا في الحياة اليومية، وكثيرًا ما نسمعها ونقرأها، ونستعملها في أحاديثنا من دون أن نعير انتباهًا لمعناها الدقيق أو نحاول تحديدها تحديدًا علميًا، وكما أنها من الكلمات «المطاطة»، مثل (الحضارة) و(المعرفة)، التي كثيرًا ما تُستعمل لملء فراغ مفهومي أو معرفي من دون الاهتمام بالدقة في الاستعمال. عرّف إدوارد بورنيت تايلور (Edward Burnett Tylor) الثقافة في كتابه الثقافة البدائية (1871) بأنها «تلك الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والإيمان والفن والأخلاق والقانون والعادات، بالإضافة إلى أي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع». وفي كتابه الأنثروبولوجيا (1881) أضاف تايلور أن الثقافة بهذا المفهوم، هي شيء لا يمتلكه إلا الإنسان². وتعني الثقافة عند مالبينوفسكي «الكل الذي يضم الأدوات المنزلية والسلع الاستهلاكية والمواثيق العضوية التي تتدبر أمور مختلف المجتمعات البشرية، والأفكار، والفنون، والمعتقدات، والأعراف». وكما يعرفها روث بينيديكت: «هذا الكل المعقد الذي يشمل على كل العادات المكتسبة من قبل المرء بوصفه عضوًا في المجتمع». وأيضًا الثقافة تعني نمط حياة يتشارك فيه المرء مع أناس آخرين؛ لذا فهي تكيّف المرء تكييفًا مخصوصًا مع محيطه الطبيعي ومع حاجاته الاقتصادية. إذًا، ليس هناك تعريف واحد للثقافة متفق عليه بين علماء الأنثروبولوجيا. وبما أنها عمومًا تعني الأفكار والمعتقدات والقيم، فلا بد من أن تتضمن مجموعة هائلة متنوعة من القضايا، وردود أفعال الأفراد حول حدث ما، ووجهات النظر الأخلاقية المجسدة في ديانة معينة أو في رواية أدبية ما، ومن هذا المنطلق نجد الثقافة في كل مكان حولنا³.

يُعد أنجيلكه واحدًا من علماء الأنثروبولوجيا الأميركيين، وتقع اهتماماته البحثية في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، فيقول: ما زلتُ أذكر، وبصورة جيدة، أول كتاب قرأته في الأنثروبولوجيا. كنت حينها طالبًا في سنتي الأولى في الجامعة. أتذكر ذلك الكتاب بوضوح لأن صفحاته أسرتني بحيث وضعتُ طريقة تفكيري بالعالم تحت محك الاختبار، بل يمكن القول إنها أحدثت لديّ صدمة ثقافية صغيرة. كان كتابًا يحمل عنوان مجتمع الوفرة الأول (The Original Affluent Society) لعالم الأنثروبولوجيا مارشال سالينز (Marshall Sahlins)⁴، الذي كان أنجيلكه متأثرًا بأفكاره في فهمه الأنثروبولوجيا، وخاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

ليست الأنثروبولوجيا مجرد نقد يشير إلى طرائق ذات طبيعة ثقافية نفهم بها مصطلحاتنا، بل تشرح كيف ولماذا تُعد الثقافة أمرًا أساسيًا في طبيعتنا أو تركيبتنا كبشر. الإنسان هو ذلك الكائن الفريد الذي دائمًا، ولا يزال، موضوع التأمل والدراسة من قبل العلوم الطبيعية والاجتماعية على حد سواء. وهناك مجموعة من التساؤلات التي تثير التعجب مثل من هو الإنسان؟ لماذا قام بممارسة بعض الأفعال؟ تُعدّ الأنثروبولوجيا العلم الذي استطاع الإجابة عن تساؤلات الإنسان خلال القرون الماضية من عمر الإنسان على الأرض؛ وذلك لأنها تدرس الإنسان وثقافته، فمنذ قديم الزمان هناك اختلاف بين شعوب الجنس البشري، لذا اهتمت الأنثروبولوجيا بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمانية، ولون البشرة، والعادات والتقاليد، والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة. ولهذا تكمن أهمية كتاب أنجيلكه بالنسبة إلى المطلع الحديث في مجال الأنثروبولوجيا في جانبين أولًا: يقدم فيه مقدمةً ومدخلًا لهذا العلم يشرح فيه للباحثين والطلبة والمهتمين ماهية علم الأنثروبولوجيا؟ وكيف تكوّن وتطوّر؟ ولماذا أصبح مؤخرًا أهم مجال بحثي معني بدراسة تطوّر الأفكار والثقافة والاعتقاد والعادات عن الإنسان. ثانيًا: يرفض أنجيلكه في كتابه التعامل مع الأنثروبولوجيا بوصفها أداة بحثية كولونيالية بيد الباحث الغربي «المتحضر» ليدرس المجتمعات «البدائية»، بل يشير إلى أن هناك مدنا كلندن

1 - ماثيو أنجيلكه، كيف تفكر كأنثروبولوجي، ترجمة عومرية سلطاني (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2020)، ص 15.

2 - كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ص 7، 8.

3 - جاك لومبار، مدخل الإثنولوجيا، ترجمة حسن قببسي (الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997)، ص 153، 154.

4 - أنجيلكه، ص 11.

ونيوبيورك في حاجة إلى الدراسات الأنثروبولوجية لا تقل عن حاجة قبائل الزوني والقبائل الأفريقية الأخرى.

عملت الأنثروبولوجيا على الدوام عند نقطة التقاطع بين الطبيعة والثقافة، العالمي والخاص، الأنماط والتنوع، أوجه التشابه والاختلاف. وقد تغيرت أساليب العمل في هذا المجال مع مرور الزمن؛ ففي فترة من الفترات، كانت نظريات التطور الاجتماعي صاعدة، مستوحاة مما توصل إليه تشارلز داروين في علم الأحياء، وهي التي قادت الطرائق التي تدارس بها مجال الأنثروبولوجيا حديث العهد مسألة التنوع الثقافي، كما مرّ وقت ساد فيه الاعتقاد بأن الزوني يشغلون مرحلة مختلفة أقرب إلى أوائل مراحل تطوّر النوع البشري. أما اليوم، فتتعامل الأنثروبولوجيا والتجارة الإلكترونية في الفضاءات الافتراضية. وتوجد طرائق أخرى متميزة كالأنثروبولوجيا الإدراكية والأنثروبولوجيا البصرية.

يفحص هذا الكتاب من خلال عنوانه كيف تُفكر كأنثروبولوجي كيفية التفكير في الأنثروبولوجيا بوصفها علمًا تحتاج إليه كل المجتمعات الإنسانية، وليست القبائل «البدائية» فقط. وتناقش الأنثروبولوجيا، كما يدعي أنجيلكه، مجموعة كبيرة من رؤى العالم وأساليب الحياة، فعلى سبيل المثال المسلمون الأتقياء في القاهرة الذين يسعون إلى الإصلاح الذاتي من خلال مشورة الشيوخ، وسكان بوليفيا الأصليون المهووسون بكرة القدم لا بالفوز فيها، وتجار العقود الآجلة في لندن الذين تعددهم معاملات الكمبيوتر بسوق أفضل، ورجال ميلانيزيا المستعدون للانطلاق عبر البحار الهائجة في قوارب صغيرة بحثًا عن قلائد وأساور لا يستطيعون ارتداؤها، والأوكرانيون الذين تحطمت حياتهم وعالمهم تمامًا بسبب الانهيار النووي في تشيرنوبيل، وغيرها من الأمثلة⁵. قد تبدو بعض المشروعات الأنثروبولوجية أوثق صلة بهذا العالم والاهتمامات الشخصية للأفراد كأخلاقيات التبرع بالأعضاء وتقديم الرعاية لمن هم في حالة احتضار End-of-life care.

هناك فرق كبير في العالم لا يزال باقياً لم يقض عليه الاستعمار تمامًا، ولكن دراسة الاختلاف من حيث هو اختلاف ليست الهدف من الأنثروبولوجيا، لأنه إذا كان الأمر كذلك لاكتفينا بالانهيار، بل ولعميت أعيننا من فرطه. فالأنثروبولوجيا لا تهدف إلى توثيق الاختلاف فحسب، وأن تكون شاهداً عليه في غالب الأوقات، بل تسعى أيضًا لفهم هذه الاختلافات. إن هدف الأنثروبولوجيا هو الشرح والتفسير وفقًا «لوجهات نظر السكان الأصليين»، أي كيف يفكر السكان الأصليون.

لذلك، يقول الكاتب «فتحن حين نحاول معرفة أشياء عن ممارسات الباحثين عن الفتوى في القاهرة، نتعلم أو نتعرف على الحرية في الإسلام في علاقتها بالسلطة وليس بالضد منها»⁶. ويتحول تجار العقود الآجلة في مدينة لندن إلى التكنولوجيا لأن عملهم يجري داخل نظام يسعى إلى تجريد عالم التبادل التجاري من الإنسانية، فالأعمال لا صلة لها بالمسائل الشخصية، ومن ثم يفعلون كل ما في وسعهم للتقليل من تدخّل البشر. ويشارك الرجال في جزر تروبرياندا في نظام التبادل (كولا؛) لأن ذلك يمنحهم شهرة بين نظرائهم، ويكسبهم المكانة الاجتماعية، وتشرّبت عرائس القرى في شمال شرق الصين، والفتيات المكالمات على أمهاتهن في وادي جيزو، الاصطلاحات الفردانية من دون أن يسفر ذلك عن شيء غريب ولا حتى عن محض صدى له، بل نراهنّ يستخدمن شيئاً جديداً لدعم الأشياء القديمة وإعادة إحيائها وابتكارها. ليست الأنثروبولوجيا العلم الوحيد الذي يسعى إلى التفسير فحسب، كما يدعي أنجيلكه، بل هناك علوم أخرى كعلم السياسة، والفلسفة، وعلم الاجتماع، تقدم هي الأخرى تفسيرات لظواهر الإنسانية. بل إن ما يمنح الأنثروبولوجيا طابعها المميز هو مدى اعتماد هذه التفسيرات على المعرفة المحلية، إذ تعتمد الأنثروبولوجيا على وجهات نظر السكان الأصليين. ولهذا يرى أنجيلكه أن الأنثروبولوجيا تدرس وجهات نظر السكان الأصليين أو كيف يفكر السكان الأصليون؟ والسؤال هنا من هو عالم الأنثروبولوجيا؟ وماذا إن كان عالم الأنثروبولوجيا جزءاً من السكان الأصليين؟ بناء عليه، إذا كان ما يميز علم الأنثروبولوجيا وجهات نظر السكان الأصليين، فإن هذا يعني بالضرورة أن عالم الأنثروبولوجيا ليس جزءاً من ذلك المجتمع (السكان الأصليون)، وعليه يأتي عالم الأنثروبولوجيا الغربي «المتحضر» لدراسة المتخلف «البدائي»، وهذه هي النظرة الكلاسيكية

5 - المرجع نفسه.

6 - المرجع نفسه، ص 284.

للأنثروبولوجيا. وإذا كان عالم الأنثروبولوجيا من السكان الأصليين كيف يبني مسافة بينه وبين وجهات نظر السكان الأصليين؟

خلاصة القول، يوجد في الكتاب مجموعة من التفاصيل والحكايات الأنثروبولوجية، وما أمّله أنجيلكه أن يكتسب القارئ الوعي الأنثروبولوجي، الذي يعني كيفية تطبيق مقاربة أنثروبولوجية للتواصل مع العالم من حوله؛ أو كيف يفكر كعالم في الأنثروبولوجيا. لا تهدف الأنثروبولوجيا إلى توثيق الاختلاف بين المجتمعات فحسب، بل تسعى أيضًا لفهمها وتفسيرها من خلال وجهات نظر السكان الأصليين. فعلى سبيل المثال، «الهاوو» (أو روح الجماد) ليس مجرد مصطلح سكه شعب الماوري؛ لقد استحال مصطلحًا علميًا أنثروبولوجيًا منذ ما يقرب قرن من الزمان، ليدكرنا بأن الفروق بين الأشخاص والأشياء ليست واضحة تمامًا مثلما نفترض في كثير من الأحيان. يتضمن التفسير الأنثروبولوجي عكسًا للصور والواجهات Figure-Ground Reversals؛ أي التبدل بين مقدمة وخلفية ما تبحث فيه وتدرسه. ولأجل الحصول على تفسير شامل، غالبًا ما يتعين على الأنثروبولوجيا قلب أوجه الإدراك السائد والتساؤل بشأن ما يُعتبر بدهيًا فيه. وهذا يعني أن الأنثروبولوجيا تدفعنا إلى إعادة النظر فيما نعتقد أننا نعرفه، مثل ما الذي يعنيه أن نكون أثرياء، ولماذا علاقات الدم مهمة، وغيرها من التساؤلات التي نعرف بها ما نعرفه؛ إذ إن ما نعرفه يحوي كل غريب ومدعش.

المراجع

- أنجيلكه، ماثيو. كيف تفكر كأنثروبولوجي. ترجمة عومرية سلطاني. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2020.
- غيرتز، كليفورد. تأويل الثقافات. ترجمة محمد بدوي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.
- غدنز، أنتوني. علم الاجتماع. ترجمة فايز الصياغ. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005.
- كوبر، آدم. الثقافة التفسير الأنثروبولوجي. ترجمة صباح صديق الدمولوجي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2012.
- كوش، دنيس. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. ترجمة منير السعيداني. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007.
- لومبار، جاك. مدخل الإثنولوجيا. ترجمة حسن قبيسي. الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997.